مجلة المرائد

العدد : ٢٢١ الموافق في ربيع الثاني ١٤٢١ هجري ٧/٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : نعم الوالد المعلم أنت يا سيدي	بقلم : أ. ماجد رسلان

شاءت إرادة العليم الخبير ، اللطيف الرحيم .. أن يجمع الكمال الإنساني كله في شخص اصطفاه سيد وَلِدِ آدم محمد بن عبد الله ﷺ لحكمة يعلمها ﷻ تجلّت لنا آثارها العظيمة وما تزال إلى يوم الدّين . !!

إن الدارس لسيرته بنزاهة فكر وإنعام نظر يجد الصياغة الربانية لشخصيته البشرية النورانية ، واضحة المعالم مُشرقة البنيان من يوم ميلاده حتى يوم وفاته ، ليست فيها حلقة مفقودة ، وبما أن شريعته الربانية كانت خاتمة المطاف لكل الشرائع السماوية ، فإنها جاءت ناسخة لها كافة ، لأنها حوت من أصول الأصول للمناهج الحياتية ، وأمهات المقاصد لما تحتاجه البشرية قاطبة في مسيرة حياتها على كل صعيد ، إلى أن تأزف الآزفة ، وتقوم الساعة ، ويُحشر الناس لرب العالمين . وإن شخصيته الخاتمة جاءت كتاباً مفتوحاً مقروءاً حوى الشريعة الخاتمة من أطرافها ، حيث جسّدها عملاً ظاهراً ، وفعلاً منظوراً بأدقِّ ما يكون الترسيم ، وأعلى ما يكون التنفيذ ، وأجلى ما يكون البيان .. ولو تفحص أي دارس ملحمة سيرته المباركة بدقة لوجد أنها خَرَّجت أجيالاً من الأناسي ملائكة مشت على الأرض أخلاقاً وسمتاً ، تجلى فيهم عمل النبوة المعجز - زماناً ومكاناً وإنساناً - في أكثر من مضمار ، وأكثر من صورة ، وأكثر من موقع حيث نقل أمة من البداوة إلى أصول الحضارة ، ومن التخلف إلى أُسس التقدم ، ومن الارتكاس إلى سمو الارتقاء ، ومن الذل إلى شموخ الرفعة ، ووحَّد أمة ولمَّ شعثها بعد أن مزقتها حروب ، وباعدت بينها فتن ، وأكلت شبابها ثارات ، وصهر أمة في بوتقة واحدة تناغمت أعمالها ، وتناسقت سلوكياتها في سلسلة ذهبية تكاملية مذهلة . فإنك ترى اليَد الصَناعَ التي أوجدت الجندي المتفاني ، والقائد المحنك ، والعسكريَ المخلص ، والحاكمَ العادل ، والعالِمَ المرشد ، والقاضيَ النزيه ، والمربيَ الأمين ، والأديبَ البليغ ، والكاتبَ المِصْقع ، والفيلسوفَ الحكيم ، والمؤرخَ الضليع ، والتاجرَ الصدوق، والصانع المتقن ، والزارعَ البارع ، والداعية الفاتح ..

إن هذا الالتحام في البناء والتربية ، وهذا التنسيق في الإعداد والصياغة ، بَوَّأ أمةً مكاناً شامخاً سامقاً على مدار أزمنةٍ وأمكنةٍ ، أهّلها أن تكون أمة الرشاد والهداية ، أمة الرحمة والملحمة ، أمة الفتح المبين ، وجعلها أنموذجاً مُنيراً يُحتذى به ، ويُصاغ على منواله أبد الدهر أجيال وأجيال من الفتح العلمي والمعرفي ، إلى الفتح الحضاري الإنساني ، إلى الفتح الأخلاقي التربوي ، إلى الفتح الجهادي العسكري الفني ، إلى آخر الفتوح التي لا يحصيها عَدّ !! .

ولو استعرض الدارس تاريخ العمالقة الذين تخرجوا من مدرسة النبوة في كل فروع الحياة من لدُن الجيل الأول حتى عصرنا ، فإنه لا يبهره هذا الحشد الضخم فحسب ، بل سيبهره أي واحد منهم على حِدة لأنه يجده أمةً وَحْدَه ليس في فن واحد أو علم واحد ، بل في فنون وعلوم واختصاصات متعددة ، كل ذلك بفضل النبي الخاتم ﷺ . فبقدر ما استطاع كل واحد منهم أن يغرف من معين النبوة الثرِّ وكان به ألصق ، وإليه أقرب ، كانت منزلته ومكانته عند الله وعند الناس أعلى وأرفع وأقوم ..

يقول أستاذنا مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في كتابه الفَذِّ " هكذا علمتني الحياة " : « سر عظمة النبوة في محمد ﷺ أنه ترك من بعده خلفاء عنه في قيادة الدعوة ، يفهمون شريعته كما يفهمها ، ويتخلقون بأخلاقه كما أدبه ربه ، فاستمرت الدعوة من بعده وأدّت رسالتها في التاريخ ... ولئن شق موسى عليه السلام بحراً من الماء انحسر عن رمل وحصى ، فقد شق محمد ﷺ مهجوراً من النفوس فانحسرت عن عظماء خالدين .. » .

أجل إن السر في عظمة هؤلاء العمالقة من سر عظمة نبيهم حيث أنهم جسدوا شريعته كما جسدها وفهموها كما رباهم عليها ، وأخلصوا لها كما علمهم إياها ، ولقد تأثروا بسرٍ آخر هو التقاء المعجزتين الخالدتين : معجزة الشريعة الخاتمة ، ومعجزة الشخصية الفريدة الخاتمة ، الأولى لم تدع صغيرة ولا كبيرة في حياة بني الإنسان إلا أبانتها ووضعت نقاطها على حروفها ، والثانية أنها جلّتْ كافة صورها واقعاً عملياً ونهجاً حركياً ، فكانت حياته ﷺ بكل دقائقها وطرائقها ، وأشكالها وأطيافها ، وسائل إيضاح ، وسنن بيان ، وأسس تربية ونهج تعليم وإرشاد لبني الإنسان في كل زمان ومكان !!

يروي سلمان الفارسي رضي الله عنه أن أحد المشركين قال له : " إني أرى صاحبكم يعلمكم . حتى يعلمكم الخِراءة ! فقال سلمان : أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القِبلة ، ونهى عن الرَّوث والعظام ، وقال : لا يَستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار " رواه مسلم .

أجل ! إن هذا النبي العظيم علَّم كل مسلم كيف يدخل الخلاء ، وما يقول قبل الدخول ، وكيف يتطهر ، وما يقول بعد الخروج ، وكيف يأكل ويشرب ، وكيف ينام ويصحو وما يقول ، وكيف يُصلي ويدعو ويتعبد ، وكيف يشري ويشتري ، كيف يُقيم ويسافر ، وكيف يحج ويصوم ، وكيف يجاهد ويقاتل ، وكيف يتزوج ويطلق ، وكيف يرضى ويغضب ، وكيف يفرح ويحزن ، وكيف يَصِلُ ويقطع ، وكيف يعاشر ويهجر ، وكيف يُسالم ويحارب ، وكيف يحكم ويحاسب ، وكيف يسكت ويتكلم .. وألف كيف وكيف .. وحين يستعرض الدارس هذا كله من مفردات الكيف يدرك سِرَّ عظمة هذا النبي حين

قال : (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القِبلة ولا يسْتدبرها ولا يستطيب بيمينه) صحيح الجامع ٢٣٤٦/١ .

فأي والد في الدنيا عبْر العصور والأمكنة والدهور قدّم لأبنائه ما يحتاجونه في صُلبِ دنياهم وأخراهم بشمول وإحاطة ما قدَّمه النبي الخاتم للبشرية ولأمته كيما يكونوا على هديه ونهجه وسمته وخُلُقِه العظيم ؟!

لو كان المسلمون حَقَّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها صوراً مصغرة عن شخصية نبيهم الخاتَم ، التي صنعها الله على عينه وأدَّبها فأحسن تأديبها ، وهذبها فأحسن تهذيبها ، وأعدها فأحسن إعدادها ..

لو كان المسلمون حق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يعيشون مع محمد ﷺ في كل شأن من شؤون حياتهم صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها ، ظاهرها وباطنها ، حلوها ومرها ، فرحها وحزنها ، سِلمها وحربها ، أصولها وفروعها ..

فهل تجد أمةً مقهورةً ذليلةً ، وقائدها سيد الأعزاء الأقوياء ، أو أمة متفرقة مبعثرة ممزقة ، وقائدها سيد مَنْ وَحّد وجمّع ، أو أمة مذنبة عاصية ، وقائدها سيد من تاب وأناب ، أو أمة جاهلة وقائدها سيد المعلمين والعلماء ، أو أمة شحيحة كزيزة ، وقائدها سيد الأسخياء والسمحاء ، أو أمة متنكبة مُعرضة ، وقائدها سيد من سارع وأطاع ، أو أمة أهلكتها الأثَرَة ، وقائدها سيد من شَرُفَ به الإيثار ، أو أمة مترفة سَرِفة ، وقائدها سيد الزهاد ، أو أمة طائشة نزقة ، وقائدها سيد الحلماء ، أو أمة مُبْغِضة حاقدة ، وقائدها سيد من أحبَّ لله وأبغض لله ، أو أمة مستكبرة متعجرفة ، وقائدها سيد من تواضع وخفض الجناح ، أو أمة كاذبة خائنة ، وقائدها سيد الصادقين والصِدِّيقين والأمناء والمتقين ، أو أمة مُحْتَربة سفكت دماءها حراماً ، وقائدها سيد من حقن الدماء ؟!

أجل ! سيدي يا أغلى من حبات حبات قلوبنا ، وعيون عيون أبصارنا ، ورَوْح أرواح أرواحنا ، نفديك بمهجنا وآبائنا وأبنائنا وأموالنا .. أنت أعظم وأجّل من ألف ألف والد ومعلم ، ولكننا نحن الذين تنكبنا وتخلفنا وأعرضنا وتاهت بنا السُبل ، وحادت بنا الأهواء عن الجادة الحقة والطريقة المستقيمة لشريعتك التي ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، نحن الذين قابلنا كل هذه المكرمات والمنن بالجحود والنكران ، حتى بعد أن سمعنا منك المبشرات العِذاب ، والتحذيرات الجسام وأنت تحدث أجيال أمتك في كل عصورها وأمصارها في حجة الوداع ، حجة الفراق ، بكلمة الختام : (أتدرون أيَّ يوم هذا وأيَّ

شهر هذا وأيَّ بلد هذا ؟ قالوا بلدٌ حرام وشهر حرام ويوم حرام . قال : ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام ، كحرمة شهركم هذا في بلدكم هذا في يومكم هذا ، ألا وإني فَرَطُكم على الحوض ، وأكاثر بكم الأمم فلا تُسَوِّدوا وجهي ، ألا وإني مُستنقِذٌ أناساً ، ومُستنقَذٌ مني أناس . فأقول : يا رب أُصَيْحابي . فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) صحيح ابن ماجة ٢٤٨١/٢.

ألا سَوّدَ الله وجه من عزم أن يفعل ما يسوؤك عمداً ، وأصر على ذلك قصداً .. ولكن يا سيدي القصور والعجز منا ، وفتن الهوى والشهوات والنزوات التي طوحت بنا جعلتنا في صفوف الصادِّين والمعرضين والمتخلفين .. وصدق الله العظيم : { **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ... } [آل عمران : ١٦٥] .

فمعذرة سيدي ما أجَلّك .. أنت في الدنيا آخذ بحجزنا أن نتقحم في النار كالهوام والفراش ، وأنت في الآخرة تهتف بربك بضراعة آسرة : أمتي .. أمتي . وغفرانك ربي ما أعظم حلمك علينا ورحمتك بنا وأنت القائل : { **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا** } [فاطر : ٤٥] .

اللهم رُدَّنا إلى كتابك وسنة نبيك ، واجمع على الهدى أمرنا ، واجعل التقوى زادنا ، واجعل الجنة مآبنا ، ولَقِّنا وجهك وأنت راضٍ عنا يا أكرم مسؤول وأعظم مجيب .

اللهم اجز عنا نبينا خير ما جازيت نبياً عن أمته ، وصلِّ عليه عدد ما خلقت في السماء وعدد ما خلقت في الأرض وعدد ما خلقت بينهما وعدد ما أنت خالق يا رب العالمين . اللهم آمين آمين .